الفصل الثاني

الايمان والطاعة

حاجة الانسان الى العلم واليقين للطاعة – معنى الايمان – الوسيلة الى اقتناء العلم واليقين – الايمان بالغيب .

هام: الانسان الى العلم واليقين للطاعة:

قد عرفت أن الاسلام هو الطاعة لله تعالى والانقياد لأحكامه وأوامره . ونريد أن نبين لك الآن أن الانسان لا يستطيع أن يطيع الله ويتبع قانونه ويسلك سبيله إلا إذا علم عدة امور وبلغ علمه بها مبلغ اليقين .

ان اول ما يجب على الانسان بهذا الصدد أن يكون موقناً من قلبه بوجود الله تعالى ، فانه اذا لم يكن موقناً بوجوده ، فكيف يطيعه ويتبع قانونه ؟

وكذلك يجب عليه أن يعرف صفات الله تعالى ، فانه إذا لم يعرف أن الله واحد لا شريك له في الوهيته ، فكيف يرتدع عن طأطأة رأسه ومد يده أمام غير الله ؟ وكذلك إذا لم يكن موقناً بأن الله سميع عليم بصير بكل شيء ، فكيف يمسك نفسه عن معصيته والخروج على أمره ؟ فيتضح من كل ذلك ان الانسان لا يمكنه أن يتحلى بالصفات اللازمة التي يجب عليه أن يتحلى بهـا في أفكاره وأعماله وأخلاقه لسلوك صراط الله المستقيم ما دام لا يعرف صفات الله تعالى ولا يحيط بها علماً صحيحاً كاملاً . ولا يكفي ان يكون هذا العلم علماً فحسب ، بل

ينبغي أن يكون متمكناً من أعماق قلبه ، ليأمن قلبه من الظنون الخاطئة وحياته من العمل بما يخالف علمه .

ثم يجب على الانسان أن يعرف ما هو الطريق الصحيح لقضاء الحياة في هذه الدنيا وفقاً لمرضاة الله تعالى ، وأي شيء يحبه الله تعالى كي يختاره وأي شيء يبغضه كي يبتعد عنه . ولا بد لهذا الغرض أن يكون الانسان على معرفة تامة بقانون الله وأن يكون موقناً بكون هذا القانون من عند الله تعالى وبأنه لن ينال وجه ربه حتى يكون متبعاً لهذا القانون اتباعاً كاملاً في حياته ؛ فانه اذا لم يعرف هذا القانون أصلاً فكيف يتبعه في حياته وإنه إذا لم يكن علمه بهذا القانون قد بلغ درجة اليقين أو إذا كان يحسب في نفسه أنه من الممكن أن يكون في الدنيا قانون آخر مثل هذا القانون في صحته وسداده ، فكيف يواظب على اتباعه مواظبة صحيحة ؟

ثم على الانسان أن يكون على علمٍ من مآل أمره إذا اختار معصية الله تعالى على طاعته ولم يسلك صراطه المستقيم أو إذا واظب على طاعته واتبع قانونه في حياته . ولهذا الغرض لابد له أن يكون موقناً بالحياة الآخرة وبقيامه بين يدي الرب تعالى يوم القيامة ومجازاته له على أعماله ان خيراً فخير وإن شراً فشر . والذي لا علم له بالحياة الآخرة ، سواء في نظره الطاعة والمعصية لا فرق بينهما ، ولا يكاد يميز بين نتائجهما المختلفة ويظن ان الذي يطيع الله والذي يعصيه سواء مصيرهما بعد الممات . فكيف يرجى من مثل هذا الرجل أن يكف نفسه عن اقتراف الذنوب مادام لا يخاف مضرتها على نفسه في حياته الدنيا أو يصبر نفسه على طاعة الله وشدائدها ومقتضياتها ؟ لا يمكن أن يكون الانسان متبعاً لقانون الله بمثل هذه العقيدة . وكذلك لا يمكن أن يواظب على طاعة الله واتباع قانونه رجلٌ وان كان على علمٍ بالحياة الآخرة وقيامه بين يدي الله تعالى يوم القيامة ، ولكن

كان علمه هذا لم يبلغ درجة اليقين ، فان الانسان لا يكاد يثبت على شيء بالشك والتردد ، وانما يمكنه أن يواظب على أمرٍ ويثبت نفسه على طاعته إذا كان على يقين تام من نفعه لنفسه . وكذلك لا يستطيع أن يبعد نفسه عن أمرٍ ، إلا أن يكون موقناً بضرته لنفسه .

يظهر من هذا كله انك اذا أردت أن تسلك طريقاً من الطرق ، فلا بد لك أن تكون على معرفة من نتيجته وغايته التي ينتهي بك إليها . وينبغي أن تكون معرفتك هذه بالغة درجة اليقين والوثوق .

معنى الايمان :

فالذي عبرنا عنه آنفاً بالعلم والمعرفة واليقين هو « الايمان » وذلك هو معنى كلمة الايمان بعينه . فكل من عرف توحيد الله وصفاته الحقيقية وقانونه ومجازاته لعباده على أعمالهم يوم القيامة ، ثم كان موقناً بكل ذلك من قرارة نفسه هو « المؤمن » ومن نتائج الايمان أن يكون الانسان مسلماً أي مطيعاً لله ومتبعاً لقانونه .

ولعلك قد عرفت من هذا بنفسك ان الانسان لا يمكن أن يكون مسلماً إلا إذا كان مؤمناً . فصلة الايمان بالاسلام كصلة البذرة بالشجرة ، فانه لا تنبت الشجرة الا بالبذرة وان كان من الممكن أن يلقى البذر في الأرض فلا تنبت الشجرة أو تنبت ولكن بشيء من النقص اما لكون الأرض مجدبة أو لشيء من الفساد في الجو . فكذلك لا يمكن أن يكون الانسان مسلماً إذا لم يكن الايمان في قلبه ، وان كان من الممكن أن يكون الايمان في قلبه ثم لا يكون اسلامه كاملاً اما لضعف في عزمه أو لنقص في تعليمه وتربيته وتأثير بيئته .

فاذا عرفت هذا ، فاعلم ان الانسان على أربع درجات باعتبار هذين الأصلين : الايمان والاسلام :

١ — الذين يؤمنون بالله إيماناً يجعلهم مطيعين له متبعين لأحكامه اتباعاً كاملاً يحذرون مما قد نهى عنه كما يحذر الانسان من الامساك بجمرة متقدة من النار في يده ويسارعون إلى العمل بما فيه مرضاته كما يسارع الانسان إلى كسب الأموال . فهؤلاء هم المؤمنون حقاً .

٢ — الذين يؤمنون بالله ولكن لا يجعلهم إيمانهم مطيعين له متبعين لاحكامه اتباعاً كاملاً . فهؤلاء وإن كان إيمانهم لم يبلغ درجة الكمال ، ولكنهم مسلمون على كل حال يعاقبون بقدر معصيتهم ، كأنهم بمنزلة المجرمين وليسوا بمنزلة البغاة المتمردين لأنهم يعترفون للملك بملكه ويخضعون لقانونه .

٣ — الذين لا يؤمنون بالله ولكن العين تراهم ظاهراً يأتون بأعمال تشابه أعمال المسلمين ، فهم البغاة في حقيقة الأمر وليست هذه الأعمال التي تراها العين صالحة في الظاهر بطاعة لله واتباع لقانونه فلا عبرة بها . ومثلهم كمثل رجل لا يعترف الملك بملكه ولا يخضع لقانونه . فاذا صدرت عنه بعض أعمال لا تخالف قانون الملك ، لا يحكم عليه بكونه وفياً للملك ومطيعاً لقانونه بل هو عاص لأمره خارج على قانونه .

٤ — الذين لا يؤمنون بالله ويأتون أيضاً بأعمال سيئة مخالفة لأحكامه وقانونه . فهم شر الناس لأنهم بغاة ومفسدون بآن .

فالظاهر من هذه القسمة ان الايمان هو الذي ينحصر فيه نجاح الانسان وسعادته في الدنيا والآخرة ، ولا يتولد الاسلام — كاملاً أو ناقصاً — الا من بذر الايمان . فحيث لا يكون الايمان ، يكون الكفر ، فان الكفر هو ضد الاسلام أي الخروج على أمر الله تعالى باختلاف درجاته .

الوسيلة الى اقتناء العلم واليقين :

قد عرفت انه لابد من الايمان للطاعة . ولعلك تسألني الآن : فما هي الوسيلة الى اقتناء العلم الصحيح واليقين المحكم بصفات الله تعالى وقانونه المرضي والحياة الآخرة ؟

قد بينا لك في ما سلف أن آثار رحمة الله ومعالم بديع صنعه منبثة في كل ناحية من نواحي هذا الكون وهي تشهد بلسان حالها أنه لم يُعنَ بايجاد هذا الكون الا إلٰه واحد وهو الذي يسيره ويدبر شؤونه وكذلك تتجلى لكل من ينظر في هذه الآثار صفات الله تعالى كلها بأتم مظهرها ؛ وأي صفة من صفات الحكمة والعلم والابداع والعفو والكرم والرحمة والربوبية والقهر والغلبة وما إليها من صفاته تعالى ، لا تلوح من أعماله وبدائع صنعه في هذا الكون ؟ ولكن الانسان قد أخطأ عقله وكفاءته عامة في مشاهدة هذه الآثار والتأمل في حقيقتها . وهذه الآثار ماثلة أمام عين الانسان ولكن على رغم شهادتها بتوحيد الله تبارك وتعالى في جميع صفاته ، قد قال بعض الناس ان الاله الاهان . وقال بعضهم ان لهذا الكون ثلاثة آلهة . واتخذ بعضهم لنفسه آلهة لا تحصى . ووزع بعضهم الالوهية بين آلهة متعددة فقال ان للقطر إلهاً وللنار إلهاً ، فهكذا جعل لكل قوة من قوى هذا الكون إلهاً خاصاً بها ثم جعل على رأس الجميع إلهاً أكبر يلجأون إليه ويقتدون بأمره وهكذا خبط العقل البشري في إدراك ذات الله تعالى ومعرفة صفاته خبط عشواء ليس هذا بمقام تفصيله .

وكذلك جاء مختلف الناس بظنون خاطئة وافكار كاذبة عن الحياة الآخرة ، فمنهم من قال ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين . ومنهم من قال ان الانسان تتكرر حياته وموته مرة بعد مرة في هذه الدنيا ولا ينال جزاء اعماله إلا فيها .

اما القانون الذي يجب على الانسان ان يواظب عليه لقضاء حياته حسب مرضاة الله تعالى ، فأنى للانسان ان يضعه بنفسه أو بدركة بعقله ، اذا كان لم يستطع ان يعرف ذات الله تعالى ويعرف صفاته بنفسه .

ومهما كان عقل الانسان ناضجاً وكان حائزاً على أعلى درجة في الكفاءة العلمية ، فانه لا يستطيع ان يرى في هذه الامور رأياً أو ما يشبه الرأي الا بعد تجارب سنين عديدة وتأمل طويل ، بل انه لا يمكن ان يكون واثقاً من نفسه حتى بعد كل ذلك ، ولا أن يدعي انه قد عرف الحق واحاط به علماً تاماً . ولا شك ان الطريق الوحيد لاختبار عقل الإنسان وعلمه أن يُترك وشأنه بدون اي هداية من فوقه ، ليقرع جده وينشد الحق والصدق لنفسه بنفسه ، فيكون النجاحُ حظَّ من ساعده سعيه وكفاءته والخسران نصيب من فاته سعيه وكفاءته . ولكن الله عز وجل اراد بعباده الرحمة وما ابتلاهم بمثل هذا الاختبار العسير ، فبعث اليهم من انفسهم رجالاً وهب لهم علماً صحيحاً بصفاته وعلمهم الطريق الذي يمكن ان يقضي به الانسان حياته في الدنيا وفقاً لمرضاة ربه . وكذلك اعطاهم العلم الصحيح بالحياة الآخرة وأمرهم ان يبلغوا علمه الناس جميعاً . فهؤلاء هم رسل الله وأنبياؤه . والطريق الذي نالوا به هذا العلم من الله تعالى هو الوحي ، والكتاب الذي فيه هذا العلم يقال له كتاب الله أو كلامه . فلا اختبار الآن لعقل الانسان وكفاءته الا من حيث إيمانه بالرسول أو كفرانه بعد النظر الى حياته الطيبة وهدايته السامية ؛ فمن كان مستعداً لمعرفة الحق واتباعه ، صدق بالحسنى وآمن بمن جاء بها ونجح في اختباره ولكن من كذب بالحسنى واستغنى عمن جاء بها ، فقد أضاع من نفسه أهلية معرفة الحق والصدق وقبولهما وذلك ما جعله يخيب في اختباره ، وصده عن تلقي العلم الصحيح بالله وقانونه والحياة الآخرة .

الإيمان بالغيب :

انك اذا كنت لا تعرف شيئاً ، تبحث عن رجل يعرفه ثم تعمل بقوله وتنزل على رأيه . فاذا مرضت ، فانك لا تعالج نفسك بنفسك بل تراجع الطبيب فان كان هذا الطبيب محنكاً في فنه حائزاً فيه شهادة عالية ورأيته قد شفي على يده كثير من الناس ، آمنت أن لديه الكفاءة التي يحتاج اليها علاجك . فبناءً على هذا الايمان لا تتناول إلا الدواء الذي يصفه لك هذا الطبيب وتجتنب كل ما ينهاك عنه . وكذلك تؤمن بالمحامي وتطيعه في أمر القانون ، وتؤمن بالاستاذ في أمر التعليم وتصدق كل ما يبينه لك . وكذلك عندما تريد التوجه الى مكان لا تعرف الطريق الموصل اليه ، تؤمن بمن يعرفه وتصدق بقوله وتسلك الطريق الذي يبينه لك . وهكذا شأنك في كل أمر من أمور الدنيا . فذلك هو الإيمان بالغيب .

فالإيمان بالغيب معناه أن ترجع في معرفة ما لا تعرفه الى من يعرفه ثم تصدقه في قوله ،انك لا تعرف ذات الله تعالى ولا صفاته ولا تعلمأن ملائكته يسيرون شؤون هذا الكون بأمره ويحيطون بالناس من كل جهة . ولا تعرف ما هو الطريق الصحيح لقضاء الحياة وفقاً لمرضاته تعالى ولا علم لك بالحياة الآخرة وما يحصل فيها للعباد فجميع هذه الامور وامثالها انما تنال علمها عن رجل تطمئن الى صدقه وامانته وعفافه وتقواه في جميع شؤون حياته وتختبره في اعماله المزيهة واقواله الحكيمة فتسلم بأنه لا يقول الا الحق وأن جميع اقواله جديرة بأن تقبلها وتؤمن بها . فهذا هو ايمانك بالغيب ولا بد لك منه ان اردت طاعة الله تعالى والعمل بما يحبه ويرضاه ، فانه لا يمكن ان تتلقى العلم الصحيح بهذه الامور الا بواسطة الرسول ولا يمكن ان تهتدي الى صراط الاسلام المستقيم وتسلكه بدون هذا العلم الصحيح .